﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [آل عمران: 149]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المناسبة بين الترغيب في اتّباع المهتدين، والتّحذير من طاعة الكافرين المضلّين

لـمَّا رغَّب الله تعالى المؤمنين - في الآيات السّابقة - في الاقتداء بأنصار الأنبياء، وبيَّن ما لهم منَ الفضل وحُسن العاقبة حذَّرهم في هذه الآية من متابعة الكُفَّار وموالاتهم، ببيان أنَّ مآل ذلك هو الخسرانُ الدُّنيويّ بالانقياد إلى العدوّ المضلّل، وإظهار الحاجة إليه، والخسران الأخرويّ، بالحرمان من الثّواب المؤبّد، والوقوع في العقاب المخلّد[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾: الأعقاب: جمع عَقِب أو عَقْب، وأصله يدلُّ على تأخير الشّيء، وإتيانِه بعد غيره. ومنه عقبُ الرَّجُل: أولاده، وعقبُ الشّهر: آخرُه، والمراد بالعَقب هنا: مؤخَّرُ الرِّجل، ومنه حديث: "ويلٌ للأعقاب منَ النّار"[2]، وقولُهم: رجع على عقبِه، يعني: انثنى راجعًا[3]، "والتّعقيب: انصرافك راجعا من أمر أردته أو وجه، والمعقّب: الّذي يتتبّع عقب إنسان في طلب حقّ أو نحوه، قال لبيد:

حَتَّى تَهَجَّرَ فِي الرَّوَاحِ وَهَاجَهُ *** طَلَبَ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ المَظْلُومُ

وقوله ﷻ: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: 10]، أي لم ينتظر، والتّعقيب: غزوة بعد غزوة، وسير بعد سير، وقوله ﷻ: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ [الرعد: 41]، أي لا راد لقضائه[4].

(1) القِنَّوجيّ: فتحُ البيان: 2/351.
(2) البخاري: 1/22، ومسلم: 1/213.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب)، والرّاغب، المفردات: (عقب).
(4) الخليل، العين: (عقب).

2) ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: مضارع انقلب بمعنى: رجع، وهو من قلَبتُ الشّيءَ، أي: حوَّلتُه وصرفتُه عن وجهٍ إلى وجهٍ، وسُمِّي القلب قلبًا؛ لكثرة تقلُّبه[1]، "وَقوله تَعَالَى: ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النّور: 37]، قَالَ الزّجاج: ترجف وتخفّ من الْجزع وَالْخَوْف، قَالَ: وَمَعْنَاهُ: أَنّ من كَانَ قلبه مُؤمنا بِالْبَعْثِ والقيامة، ازْدَادَ بَصِيرَة، وَرَأى مَا وعد بِهِ، وَمن كَانَ قلبه على غير ذَلِك، رأى مَا يُوقن مَعَه أَمر الْقِيَامَة والبعث، فَعلم ذَلِك بِقَلْبِه، وَشَاهده ببصره، فَذَلِك تقلُّبُ الْقُلُوب والأبصار"[2]، ومعنى قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: أي "فتعودوا بالخسران المبين، والهلاك المُحقّق"[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذيرٌ من الارتداد على الأعقاب، كي لا ينقلب إلى الخسران

يخاطب الله تعالى أصحاب النّبيّ ﷺ وسائرَ المؤمنين تبَعًا لهم - مُصدِّرًا ذلك بالنّداء، بقوله: يا أيّها الّذين آمنوا بالله ورسوله، إن تتَّبعوا أهل الكفر منَ المنافقين والمشركين " الّذين حاولوا إلقاء الشّبهات في قلوب ضعاف المؤمنين، بقولهم: لو كان محمّد نبيّا حقّا، لانتصر، ولم يكن له يوم وعليه يوم، (وهؤلاء هم أبو سفيان وعبد الله بن أبيّ بن سلول)، لأنّ إطاعتهم تورث البوار في الدّنيا، بخضوعهم لسلطانهم، وذلّتهم بينهم، وفي الآخرة فيما يصيبهم من العذاب الأبديّ في نار جهنّم"[4]، وذلك آيلٌ بكم إلى الرُّجوع إلى حالكم الأوّل، منَ الكفر المقتضي خُسرانَ خيرِ الدُّنيا وسعادة الآخرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (ياء النداء):

استدعاء إقبال المخاطَب لخير يُؤمَر به، أو شرّ يُنهى عنه

لمّا كانَ الحرفُ (يا) مفيدًا النِّداءَ دلَّ على طلبِ إقبالِ المؤمنينَ إلى المنادي، وهو اللّه تعالى؛ لِيدلَّ على معنى التَّودُّدِ والتَّحبُّبِ، ويؤيّدهُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قلب)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/17.
(2) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(3) ابن سيده، المحكم: (قلب).
(4) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 442.

أنّهُ خاطبَهم بوصفِ الإيمانِ، ولمّا كان (يا) لِنداءِ البعيدِ واقترنَ به (ها) التَّنبيهِ دلَّ على تنبيهِ المؤمنينَ على عِظَمِ الأمرِ والاهتمامِ بشأنِه[1]، وخاطبَهمُ اللّهُ تعالى بنفسِه بعدَ ما أَمرَ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يُخاطبَ أَهلَ الكتابِ؛ إظهاراً لجلالةِ قدرِهم، وإشعاراً بأنَّهم همُ الأحقَّاءُ بأنْ يخاطبَهمُ اللّهُ ويُكلّمَهمْ[2].

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

يدلُّ الاسمُ الموصولُ على العمومِ، فيشملُ كلَّ المؤمنين، ولمّا كانَ المخاطبونَ وقتَ التَّنزيلِ همُ الصَّحابةَ ﷺ كانَ دخولُهمْ في الخطابِ دخولًا أَوَّليًّا[3]، والكلامُ مثلُهُ يجري في قولِهِ تعالى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فيشملُ كلَّ الكافرين، ويدخلُ فيهِ الكافرونَ وقتَ التَّنزيلِ دخولًا أوّليًّا كذلكَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ الاسمِ الموصولِ وصلتِهِ في قولِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

شأنُ المؤمنِ هو عدمُ ارتكابِ ما يناقضُ إيمانَه

عبَّر بالاسمِ الموصولِ وصلتِه؛ لإحضارِ وصفِ الإيمانِ عند المخاطبينَ؛ للإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ على صلةِ الموصولِ، أَي: إنَّ اتِّصافَهم بالإيمانِ يقتضي الامتثالَ، وهو التّحذيرُ مِنْ طاعةِ الكافرينَ والانقيادِ لهمْ، كما أفادَ التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ توجيهَ المخاطبينَ إلى ما سُيخبرُ بهِ عنهُ؛ لِينتظروا ورودَ الخطابِ حتَّى يأخذَ منهُ مكانَهُ إذا وردَ؛ لِيبادروا إلى الامتثالِ، وفيهِ تعريضٌ باستحقاقِ المؤمنِ الإجلالَ والتَّعظيمَ بسببِ وصفِ الإيمانِ[4].

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾:

لمّا كانتْ ﴿إِن﴾ تُستعمَلُ عندَ عدمِ الجزمِ في وقوعِ الشَّرطِ، وكانتْ

(1) التّفتازانّي، المطوّل، ص:430.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 2/31.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353.
(4) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 182.

طاعة الكافرين ممّا يُستبعَد وقوعه من أهل الإيمان

تدلُّ على نُدرةِ وقوعِ الشّرطِ المقترنِ بها[1] أفادتْ عدمَ القطعِ بإطاعةِ المؤمنينَ للكافرينَ وندرةَ وقوعِهِ، وأيّدهُ اقترانُ الأداةِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تُطِيعُواْ﴾ دونَ الماضي، إشعارًا بأنَّ مَنْ لهمْ وصفُ الإيمانِ باللّهِ لا يطيعُونَ مَنْ لهمْ وصفُ الكُفرِ بهِ سبحانَه وتعالى، ففي التّعبيرِ بـ ﴿إن﴾ إشارةٌ إلى استبعادِ وقوعِ هذهِ الطَّاعةِ منَ المُخاطَبينَ المؤمنينَ.

بديع الطباق:

حسنُ الإيمانِ وقبحُ الكفر

وردت جملة الصّلة ﴿كَفَرُواْ﴾ في مقابلة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ على سبيلِ الطّباق، لِمَا فيهِ مِنْ بيانِ القبحِ بضدّهِ منَ الحُسنِ؛ تحريضًا على استمساكِهم بالحسنِ، وتحاميهم الوصفَ القبيحَ، بكلِّ سبيلٍ، وفي الطّباقِ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنَ لا ينبغي أنْ يُطيعَ الكافرَ؛ لِمَا يؤولُ بهِ إلى أنْ يُسلَبَ منه وصفُ الإيمانِ، ويتلبَّسَ بضدِّهِ مِنَ الكفرِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تُطِيعُواْ﴾:

عبّر بـ ﴿تُطِيعُواْ﴾ لِما في الكلمةِ من معنى الانقيادِ والمضيِّ في أمرِ المُطاعِ، والمعنى إنْ يُطِعِ الَّذينَ آمنوا الَّذينَ كفروا يكونوا مُنقادينَ لَهم في القولِ والفعلِ والقلبِ، معَ لِينهِمْ وتيسُّرِهم لِلكافرينَ، فيتمكَّنوا مِنْ توجيهِهمْ وتشغيلِهم، فيرتدُّوا على أعقابِهم وينقلبوا خاسرينَ[3].

بلاغةُ حذفِ المتعَلَّق:

حذفَ متعلَّقَ الفعلِ في قوله ﴿تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، فلمْ يُقلْ: إنْ تطيعوا الّذينَ كفروا في إغرائِكم بالعودةِ إلى الكفرِ أو ماهو مثلُه في المعنى، فأطلقَ لِإفادةِ عمومِ التَّحذيرِ مِنْ أيِّ طاعةٍ منَ المؤمنينَ للكافرينَ.

(1) التفتازاني، المطول، ص: 318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (طوع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/122.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول في قولِهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

لِلإشعارِ بعلّةِ الحكمِ؛ لِيؤذِنَ بأنَّ النّهيَ عن طاعتِهم المضمَّنَ في معنى الشَّرطِ هو بسببِ ما اتّصفوا بِهِ مِنَ الكفرِ، وفي التّعبيرِ بوصفِ الكفرِ إهانةٌ واستهجانٌ لهمْ، وزيادةٌ في التّنفيرِ عنهمْ، والتّحذيرِ مِنْ طاعتِهم، ولفظُ الكفرِ صالحٌ بِالوضعِ اللُّغويِّ لِكلِّ كافرٍ مِنْ مُشركٍ وكتابيٍّ، مُظهِرٍ أَو منافقٍ[1].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ في قوله ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾:

في نسبةِ الرَّدِّ إلى الكافرينَ في قولِه تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ مجازٌ عقليّ؛ إذْ أُسندَ فِعلُ الرّدِّ إلى الكافرين، مع أنّ الرّادَّ في الحقيقةِ هو اللّه تعالى، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36]، وفي هذا المجازِ إشارةٌ لطيفةٌ إلى التّخليةِ بينَ الكافرينَ ومُطيعِيهم، وخُسرانِهم لتوفيقِ اللّه تعالى وتأييده[2].

العـــودةُ إلى الكفرِ انتكاسٌ، وتَـقَـهـقُـرٌ عـنِ الطّريقِ القويمِ، وهـــو أقـبـح القبائح

بلاغةُ قولِه تعالى ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ بينَ الاستعارةِ والكنايةِ:

يحتملُ أنْ يكونَ قولُه تعالى ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً حيثُ شَبَّهَ الرَّاجعَ عَنِ الدِّينِ بِالرَّاجعِ الْقَهْقَرَى على الأعقابِ[3]، فحذفَ المشبّهَ وأقامَ المشبَّهَ بِهِ مقامَه؛ ليكونَ على معنى إثباتِ الانتكاسِ والخسرانِ بالدَّليلِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ كنايةً بليغةً، حيثُ كُنِّي عن رجوعِ المرءِ إلى الكفرِ - بعدَ أنْ نجَّاهُ اللّهُ منهُ - بالرَّدِّ إلى جهةِ الخلفِ مِنْ غيرِ أنْ يعيدَ وجهَه إلى جهةِ مشيِهِ، لِيدلّ على أنّهُ غيرُ مهتدٍ في طريقِهِ، ولا مُحترزٍ ممّا قدْ يُهلكُهُ في أثناءِ سيرِهِ، وقد صارتْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 7/278، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 6/353، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/121.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/262، والبروسوي، روح البيان: 2/108.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.

هذهِ الكنايةُ علَمًا في انتكاسِ الأمرِ، ومثَلًا في الحَورِ بعدَ الكَورِ، والنّقصانِ بعد الزّيادةِ[1].

مناسبةُ التّعبيرِ بالأعقابِ:

في التّعبير بالأعقاب - وهي مؤخَّرُ الأرجُلِ - عنْ جهةِ الوراءِ إشعارٌ بالانخفاضِ والانحطاطِ في مسيرِ العائدِ منَ الإيمانِ إلى الكفرِ؛ إذ عُبِّر عنْ جهةِ سيرِهِ بجزءٍ من أخفضِ أعضائِهِ وأحطِّها[2]، فالارتدادُ على العقبِ علمٌ في انتكاسِ الأمرِ كما تقدَّم.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾:

الارتـــداد عـن الإيـمـان صفقةٌ خاسرةٌ

وردتِ الاستعارةُ على تمثيلِ مَنْ حبطَ عملُهُ - لارتدادِه عنِ الإسلامِ - بالتّاجرِ الّذي خسرَ ربحَه ورأسَ مالِه جميعًا؛ فالإسلامُ صفقةٌ رابحةٌ، فحذفَ المشبَّهَ وأقامَ المشبَّهَ بهِ مقامَهُ، فإنّ حبوطَ العملِ يحصلُ بهِ ضياعُ سعيِ المرءِ، ويكونُ يومَ القيامةِ هباءً منثورًا، وهذا أعظمُ ما يكونُ منَ الخُسران، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزّمر: 65][3]، ويُقوّيهِ مجيءُ الفعلِ ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾ لمَا فيه منَ المناسبَةِ معَ الاستعارةِ السّابقةِ ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾، وفي اقترانِ الفعلِ بالفاءِ دلالةٌ على سرعةِ الانتكاسِ المُخزي.

بلاغةُ أسلوبِ الشّرطِ:

لمّا كانَ الشَّرطُ دالًّا على وقوعِ الجزاءِ بوقوعِ الشَّرطِ واقترانِه بهِ مِنْ غيرِ مُهلةٍ أفادَ أنَّ ارتدادَ المؤمنينَ وانقلابَهم خاسرينَ يقعُ بوقوعِ طاعتِهم لِلَّذينَ كفروا، وفي أسلوبِ الشَّرطِ إمعانٌ في البيانِ وفي التَّحذيرِ؛ ففيهِ نهيٌ عن طاعةِ الكافرينَ معَ التَّعريفِ بقبحِ إطاعتِهم ومآلِها، وما يعرضُ فيها مِنَ الفسادِ[4].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 2/504، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/381، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/97.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/113.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/381.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 3/960.

نُكتةُ العطفِ في جزاءِ الشَّرطِ:

لمّا جاءَ الجزاءُ في جملتينِ معطوفتينِ ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ دلَّ على أنَّ الجزاءَ بمجموعِ المعطوفِ والمعطوفِ عليهِ مرتَّبٌ، أي لا يقعُ المعطوفُ حتَّى يقعَ المعطوفُ عليهِ، والكلامُ على تقديرِ شرطينِ متضامَّينِ، والمعنى إنْ تطيعوا الَّذين كفروا يردُّوكمْ على أعقابِكم، وإنْ ترتدّوا على أعقابِكمْ تنقلبوا خاسرينَ، ولِهذا أتى بالفاءِ الدالَّةِ على التَّعقيبِ وأنَّ ما قبلَها سببٌ لِما بعدَها، فصارتْ طاعةُ الكافرين سببًا لـ ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾، منْ أجلِ كونِهِ سببًا في الارتدادِ على الأعقابِ[1].

دلالة قوله ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾:

لمّا كانتِ الفاءُ لإفادةِ التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، وكانَ ما قبلَها سببًا لِما بعدَها كانَ التَّعبيرُ بمثابةِ التَّصريحِ بما عُلِمَ التزامًا منْ قوله ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾؛ لِمزيدِ التَّنفيرِ عنْ مطاوعتِهم، فذكرَ الخسرانَ؛ لِما فيهِ منْ معنى الضّياعِ والتَّوحُّشِ الَّذي ينفرُ منه العقلاءُ[2].

(1) الجرجانّي، دلائل الإعجاز: 1/234.

(2) القونويّ، حاشيّة على تفسير البيضاويّ: 6/353.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس، سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 6 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-58-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 6 : سورة آل عمران من الآية 141 إلى الآية 23 من سورة النساء.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-58-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2475776 بتاريخ 2023/03/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»